عودة من المنفى: أسبوع في ملتقى الرياح! (2 من 2)

مقاه لبنانية ومغربية تنتشر في نواكشوط.. وصوت فيروز الدافىء يضفي مسحة بيروتية على «مدينة الصلاة»

في انتظار أن تكتمل التجربة من حقنا أن نتصالح مع التفاؤل بمواصلة البلاد مشوارها مع التاريخ

عبد الله حرمة الله*

الطواف بمقبرة انواكشوط

بعد الاطلاع عن قرب على وضعية صاحبة الجلالة، قررت مع أخي الذي ينتظر التعيين قبل نفيي، بعد أن أكمل دراساته العليا في الاقتصاد، أن نطوف بمقبرة انواكشوط، حيث ترقد فطمة منذ فاتح آذار (مارس) من سنة 2001، لنتخلص بصعوبة فائقة من حركة المرور المزد حمة بانواكشوط صبيحة الجمعة الموالي. رغم أني قابلتها مرات في أحلامي الصاحية، كنت أنتظر الوقوف على روضتها، لأعطيها من أخباري ما يسرها، علي أتمكن من اقناع ما تبقى من صحوي بأنها رحلت والى الأبد، خصوصا أن ابنتي تنتظرها بالهدايا والقبلات، بعد أن عجزت عن اقناعها بأن جدتها التي تكتسح صورها بيتنا، لن تعود أبدا! أحاسيس معقدة كان ينبغي فكها، ولو طال الانتظار. جدتي كذلك كانت في الانتظار في نفس الرياض، مع ترددي في اطلاعها على ما آل اليه صدام، وهي التي غادرتنا ساعات بعد انطلاق عاصفة الصحراء، التي كانت تتوهمها بداية أكيد ة لبعث المهدي، واستعادة العرب لكرامتهم! رحم الله جدتي، لم تحب غير العرب، مع عجزي عن اعتبارها عنصرية! لقد كانت قومية من غير الأدلجة.

وصلنا الى المقبرة، حيث فقهت احساسي بالغربة أثناء وصولي لانواكشوط، فالألواح المثبتة بخشبة على الرياض، جعلتني احس أن أهل المدينة الذين عرفتهم لم يعودوا من هذا العالم، فقد نزحت أجسادهم الى الضاحية، بعد أن حلت أرواحهم بفردوس نأمله دون تعطش. لو لم أقابل بعض أفراد أسرتي، لقلت ان كل الذين عرفت قد زارهم ذلك المرابط غير بعيد من حبل الوريد.

المهم، أني لم أوفق في السلام على أمي، فقد حفر سيل الدموع بكل عجرفة ما تبقى من خدودي الكئيبة، أسناني اصطكت بتراص أحجم اللسان عن نطق التحية. أثناء هذا العجز الاعتباطي تذكرت آخر مرة رافقت فيها وحيدة جدتي لزيارتها، فبعد اثني عشر من الصمد، خاطبتني قائلة: لم يعد بقربها موضع شبر! ساعتها لم أفهم قصدها، لأني كنت مستعدا «لمطارحة» القدر كي لا تغيب، فأنا لم أتصور أبدا رحيلها قبلي! لكني اليوم، فهمت ما كانت تقصد، خصوصا أنها تبعد مترين عن لالة، التي انقطعت وهي توصيها علي وعلى صدام، ربما قلقا ليساريتي الموغلة في رفض كل انتماء قومي بمفهومه الضيق.

كم هو مريح أن يبتلع الحلق سباخ العيون المثقلة بالهموم، في حضرة الأموات، الذين فهموا حقيقتنا الآدمية، التي تستوجب البكاء تماما كما تقر القبلة بدمويتها، حسب التعريف الهلامي لأمجد ناصر. هكذا عدت على رسم خطاي، مخافة أن تلتهمني الأيادي الخشنة لحفاري القبور المتربصين على جمر الفاقة، لجسد يواروه التراب، فهم صدقوني، لا يطيقون «البطالة»!

بعد هذه الأحداث، كان من حق «الطفل»، الذي ما زلت، أن يقتطع لنفسه رقعة من زمنه القصير، لأصدقائه المرحين.

فقد أصبحوا ضباطا في الجيش، موظفين سامين، رجال أعمال ناجحين.. وكنت بالنسبة لهم المفلس المنشغل بالسياسة أو الثقافة، حسب اختلاف نزعاتهم، كنت ببساطة: «من واصل بوفاء المشروع الأول للشلة»، فكثيرا ما نظرنا لحضور معتبر في مستقبل البلد، داخل الزنزانات وفي مدرجات الجامعة، لكن الطباع رسمت لاحقا مصير كل واحد منا، دون أن تنفصم عرى اعلاننا المبدئي! فروابطنا كانت أقوى من كل العواصف الآنية: فالحب جمعنا والشعر غذانا بما فيه الكفاية، فرغم «أجنحتنا المتكسرة»، جمعتنا بعد فراق «حياة كسرد متقطع»، التي تلقفوا بنهم دل على عزلتهم التي شكوها بالدموع...

أخذ كل منا مكانه في سيارة «أنجلز»، كما كنا نسميه، و الذي أصبح ضابطا في الجيش، يتولى مع آخرين حماية القصر الرئاسي، ليؤدينا الى منتجعه البدوي، بعيدا عن ضوضاء المدينة ودخانها الخانق، لنحط على ديمومة حمراء، لتطفق أقداح لبن الابل في مغازلة مرارة لساني المتعود على الأطباق المعلبة والسوائل المبسترة. كانت الأقداح مصطفة في تناسق أحال بياض اللبن الذي حوت يشبه الأضواء المنبطحة لحديقة مترامية الأطراف، في ليل بهيم. الجلسة كانت رائقة، أصواتنا كانت عالية، وضحكاتنا مجلجلة. في هذه الصحراء رافقنا طيلة السمر المتنبي، الذي بدا ساخرا من المحاولات «المنظومة» لتقفي جغرافية قصائده! وبعد أن أتى على آخر رشفة من وقود سهرتنا شديد البياض، تأبط حقيبته الجلدية، وقال مودعا:

..لا تحزنوا، فبغداد لن تموت
ستبقى كما أحببتها: قصيدة وكأسا وعنبا
لقد أدمنت احياء الموت
ستهبه لمن داس قرطاسي...

ابتلع ريقه وأضاف: سأرسل عليهم الحمى.، فجأة خلع عمامته، ليصيح دون أن يرفع صوته: .. بعد «النوم ملء الجفون» ، اكتشفت جمال قصيدة النثر، ذوقوها علكم ترحمون، فالشعر لا يوحى على المليون، بل يحياه الفرد من بين الملايين...

عدنا الى المدينة المتأهبة لاقتحام معركة السحور، الذي ستدخل بعده في نوم هادئ ما بقيت الشمس في كبد السماء.

في بيت أبي أخذت قسطا من الراحة كنت في أمس الحاجة اليه، لأستيقظ على فطور تناولته لوحدي. زوجة أبي المنهمكة في اعداد الشاي، لم يفارقها مصحفها طيلة اقامتي، لقد أحرجتني بتلاوتها الخاشعة، فقد نسيت جزءا كبيرا من القرآن الذي حرص أبي على تحفيظي اياه، وتذكرت ما قال لي معلمي بمسجد «الشرفاء»: حافظ على ما تعلمت فالقرآن شاهد لك أو عليك. لكن وسيطي الذي لم يعرف طعم النوم منذ أن حل مكتبه بالقصر الداكن، أكد لي دعوتي الى القصر الرئاسي لحضور أول مؤتمر صحافي للرئيس الجديد. اذا ينبغي أن أتهيأ لولوج بناية، كان حراسها قد ضربوني رفقة بعض الزملاء، عندما حاولنا المشاركة في تغطية مؤتمر صحافي للرئيس شيراك أثناء زيارة رسمية لموريتانيا.

لكن المغامرة هذه المرة كانت مغرية، فلأول مرة في تاريخ الجمهورية القصير تستدعى الصحافة المستقلة لحضور مؤتمر صحافي رئاسي، دون أن يوزع عليها البروتوكول لائحة الأسئلة المسموح بطرحها! اللقاء دام أكثر من ساعتين بمد وجزر لم تكن صحافتنا الفتية قد تعودت على مثله، لكنه أعاد لها جزءا من الثقة المفقودة، بوعيها الاعتبار الجديد الذي حظيت به، حيث تجلى ذلك من خلال عناوين الصحف الصادرة في اليوم الموالي، اذ بدت قادرة على مواكبة هذا التحول بالنقد الايجابي والاشراك العادل لكل القوى الحية للبلد، بمسؤوليتها التاريخية في طمأنة الرأي العام أنها حاضرة و ينبغي أن تكون صفحاتها مسرحا لمعارك المرحلة الانتقالية بدل الشارع لهشاشة البنى المؤسساتية لموريتانيا. بكلمة واحدة كانت الصحافة واعية لكل مسؤولياتها.

طيلة مقامي لم أتوقف عن التفكير بطريقة أنقل بها الى العالم حقيقة هذه الثورة الديموقراطية القادمة من الجنوب، خصوصا بعد ما شاهدت الأمور عن قرب، ليتبدد الكثير من المخاوف والتحفظات، التي كنت قد اعتمدت في محاولة فك طلاسم هذه الصحوة المفاجئة، فالتلاحم القائم بين معارضة ولد الطائع وخالعيه، كان يوحي بعقلانية تنم عن استعداد الجميع لمواجهة المستقبل الديموقراطي، بحوار سياسي متزن ومسؤول، في انتظار أن يفصل الناخب عبر بطاقة انتخاب لم توفق أبدا في ايقاف ماكنة التزوير التي تعودت منح الحزب الحاكم أصواتا تفوق أصلا عدد سكان البلاد!

مقاهٍ لبنانية

ظاهرة جديدة تعرفها انواكشوط، انتشار المقاهي اللبنانية والمغربية، حيث تحتضن حتى ساعات متأخرة من الليل روادا يمثلون غالبية شرائح المجتمع، اذ لا نعدم على هذه الطاولات المتراصة كموقف السيارات، نقاشات تحاول عبثا أن تعلو على صوت فيروز الدافئ، الذي ينتهي به الأمر في كسب الجولة، مضفيا على الأحياء السكنية للعاصمة مسحة بيروتية، تتجاوز «اكليشات» تجار القماش والأجساد! لكنها لم تفتأ أن توارت، تاركة «مدينة الصلاة»، تتهيأ للحظات المقدسة قبل الامساك .

مرة أخرى يرن الهاتف، ليعلن لي أن رئيس الدولة في انتظاري بمكتبه، بعد ثلاث ساعات. صحيح أني سجلت بعض الانطباعات منذ أن حضرت مؤتمره الصحافي الأول، لكن هل يسع قسط من الوقت على هامش أجندة مشحونة لقائد مثله أن أصب كل ما في جعبتي؟ المهم أن زاويتي التي أقلعت عن توقيعها منذ سنوات يمكن أن تخلد الى الراحة، ما دمت سأقابله دون أي وسيط، وسيسمعني خارج النشرات الصحافية التي يعد له معاونوه.

لا داعي للتفكير كثيرا، فالوقت يضيق والأفكار تزدحم، والأجفان ترتجف من فرط السهر، من حسن حظي أني سأتجنب هذه المرة زحمة المرور، فبيت أبي يبعد عشرة أمتار فقط عن مكان الموعد.

بعد أن اجتحت الحواجز الأمنية، مشيت طويلا لأصل مدخل مكاتب الرئاسة، التي قد تغيرت كثيرا، وبينما أنا غارق في تأمل البناية الجديدة برحابتها، وجدتني فجأة في قاعة الانتظار، بين مجموعة من رؤساء الأحزاب ورجال الأعمال، بعض الوزراء كان كذلك في الانتظار، من غرابة الموقف أن كل هذه الشخصيات التي تعج بها صالة الانتظار، لم يكن لها أبدا أن تتواجد في نفس المكان قبل الثالث من آب (أغسطس)، الذي أعاد بي الى انواكشوط.

في بعض الأحيان قد يصبح سب الدهر ضربا من التهور! فالطرق الى روما تبقى متعددة، ومنها ما هو آمن...

بعد تجاذب أطراف الحديث مع الحضور، حول حرارة جو انواكشوط، تارة والتغيير الأخير، قاطعنا البروتوكول طالبا الاستعداد لمقابلة الرئيس. أودعت حقيبتي الحراس بعدما استللت من داخلها قلما ومفكرة صغيرة، عبرت البهو الفاصل بين القاعة والمكتب، فتح الباب، أظنني ألقيت التحية مرات، لطول المسافة، شيئا ما، الفاصلة بين الباب وطاولة عمل الرئيس، كان الصمت يعيد على أسماعي صدى صوتي القادم من بعيد! أول ما أوحى الي هذا المكتب، أن ساكنه يضيق به، يريد مغادرته! فلم ألحظ وجود أي صورة عائلية، على الجدران، المكتبة الخلفية كذلك غابت منها العناوين المقربة من الرئيس، الذي يؤكد من عرفوه على شغفه الكبير بالقراءة. فالديكور قبل الخطاب، يدل فعلا أن الأمر يتعلق بفترة انتقالية.

تناول الحديث الذي كان وديا، من بين أمور أخرى: حرية الصحافة، ملف حقوق الانسان، دور موريتانيي الخارج في اثراء هذه التجربة بمشاركتهم الفعالة...بقدرته العالية على الاصغاء، تخلصت من كل المخاوف، التي تهدد في نظري المرحلة العصيبة التي تعيشها البلاد. وعدني الرئيس بدراسة طلب اللقاء التشاوري الذي تقدمت به مع «روبير مينار»، الأمين العام لمنظمة «مراسلون بلا حدود»، أما بخصوص ملف حقوق الانسان، فقد كان قاطعا من خلال ارادته في تفادي أي تعتيم على هذه الحيثيات، وعزمه على تناولها واحدة تلو الأخرى حسب معايير الأولوية والفعالية. من الناحية الرمزية اعتبرت هذا اللقاء نصرا لخطاب التغيير، ما دامت أعلى سلطة في البلاد تتبنى نفس الطرح، الذي قدمت المعارضة الموريتانية من أجله كل غال ونفيس، طيلة عقد وبضع سنين. فهمت كذلك لماذا سارعت المعارضة في تبني هذه المرحلة ومنحها الدعم الكافي دون أبسط تردد.

خرجت على أمل العودة! وبينما كنت أهبط المصعد، معيدا تشغيل هاتفي الجوال، رن مرة أخرى على عادته منذ أن وصلت انواكشوط، كانت ابنة عمتي على الخط، باكية، وكأن تنهدها بعد دموعها، يردد بقوة مرهبة: «وا معتصماه». ترجلت وقالت: رحم على عمك محمد. انقطعت المكالمة وتوالت رنات خط مشغول. كيف؟ كيف يرحل قبل أن يحضنني، كما تعود؟ بادرت مسرعا الى السيارة، لأتأكد أن «هذيان» مريم كان صحيحا، فالاذاعة الوطنية بثت لتوها نبأ رحيله، مقدمة التعازي باسم وزارة الداخلية لأحد رموز المقاومة السياسية ضد المستعمر... لمن لا يعرفه من قراء القدس: كان وسيما، بحضنه استوطن الود، وعلى جبهته استقر المجد، ومن على قامته بنت العمامة بيتا، عماده الكرم. كفه اليمنى للجائعين كانت صحنا، وللأحفاد رطبا يطمئن الروح. وحده من بين كل من عرفت جسد: «العم أحد الأبوين».

لا مفر من المسؤولية، ينبغي أن آخذ الطائرة غدا باكرا، لأستلم ابنتي من الحضانة بالدائرة العشرين من باريس، لأن والدتها كانت قد تغيبت لسفر لا يقل أهمية هو الآخر.

ودعت أبي عبر التليفون، وعانقت كل من حضر الى منزله، لآخذ طريق العودة. قبل الوصول الى سلم الطائرة، كنت أنفث بشراسة سيجارتي الأخيرة، قبل بداية سفر دام خمس ساعات، فاذا بشرطي عديم اللباقة، يأخذ علي «استفزازي» في ظهر المحرم! قلت لنفسي أهو «غريب» تجنس للتو؟ فمجتمعي الى حد قريب، كان يعتبر «المرء فقيه نفسه»، لكن نبرته أبدت أنه على الأقل موريتاني المولد. بهدوء لم أتعوده، ولباقة لم يستحقها، خاطبته: سيدي، عبدالله، فقيه نفسه، ومسافر، وعدة من أيام أخر، وان الله يحب أن تأتى رخصه، وتقبل الله صومك، ومعذرة عن حظك من الجوع والعطش... لم أنم طيلة السفر الا ساعات معدودة، استلقيت على مقعدي بالطائرة، لأستيقظ في الطابور لاشتراء تذكرة الميترو.

الى بيتي وصلت رفقة أميرتي، التي أصغت بكل امتنان الى حديث رحلة «بابا» قبل أن تغرق في نوم هادئ على صدري.

وفي الصباح أثناء تحضيرها للالتحاق بالحضانة من جديد، مدت أصبعها نحو خريطة العالم في مدخل بيتنا، ناعتة خريطة موريتانيا: «بلد بابا»، كم كنت سعيدا بهذه المفاجأة، فقبل سفري هذا لم تبد أبدا أي اهتمام بمثل هذه الأمور التي بدت لها معقدة!

بعد خمسة أيام عدت من جديد الى موريتانيا، لأقابل الرئيس مرة ثانية صحبة روبير مينار وزميل آخر، حيث أطلعنا الرئيس على نواياه بخصوص اصلاح قطاع الصحافة، شاركنا كذلك في الأيام التفكيرية التي حضرتها كل القوى السياسية والاجتماعية، لتخرج بعد ثلاثة أيام من النقاش، بمذكرة، جردت كل مراحل الفترة الانتقالية، بوفاق كان الأول من نوعه في تاريخ البلاد.

أما بخصوص حرية الصحافة، فقد تم تشكيل لجنة وطنية استشارية، عهد اليها بمهمة اعداد قانون جديد لحرية الصحافة، يلغي بصفة نهائية المصادرة، ويحضر لحرية فعلية لحقل الاعلام المرئي والمسموع. في انتظار خلاصة أعمال هذه اللجنة، فتحت وسائل الاعلام الرسمية أمام الأحزاب السياسية وباقي منظمات المجتمع المدني، بحرية شهد بها الجميع.

في انتظار أن تكتمل هذه التجربة، من حقنا أن نتصالح مع التفاؤل، ريثما يكمل البلد مشوار ميعاده مع التاريخ.

* كاتب وصحافي من موريتانيا يقيم في باريس

لأول مرة في تاريخ الجمهورية الموريتانية القصير تستدعى الصحافة المستقلة لحضور مؤتمر صحافي رئاسي دون أن يوزع عليها البروتوكول لائحة الأسئلة المسموح بطرحها! اللقاء دام أكثر من ساعتين بمد وجزر لم تكن صحافتنا الفتية قد تعودت على مثله... لكنه أعاد لها جزءا من الثقة المفقودة بوعيها...